

حكمة الإسلام في تحريم الخمر

كتبه حسن لانكولوغ*

كتاب حكمة الإسلام في تحريم الخمر دراسة نفسية اجتماعية الذي ألفه الدكتور مالك بدري يُعدّ فريداً من نوعه، حيث يركّز على الناحية النفسية والاجتماعية الناجمة عن إدمان الخمر. الكتاب يتكون من سبعة فصول ومقدمة، إحداها للطبع الإنجليزية والأخر للعربية.

سنورد محتوى هذه الفصول باختصار مع تعليقنا عليها، ثم نعطي تقسيماً عاماً للكتاب ككل.

1 - في الفصل الأول أشار المؤلف إلى أنه بعد تحريم الخمر في حياة الرسول ﷺ وأيام الصحابة لم يذكر التاريخ إلا سبع حالات تم فيها توقيع عقوبة السكر. إن دل هذا على شيء فإنما يدل على ندرة حالات السكر بعد التحريم وكانت الطريقة التي اتبعها القرآن الكريم لتحريم الخمر هي التدرج حيث استغرق مدة ثلاثة سنوات ابتداءً من المقارنة بين منافع الخمر ومضارها إلى أن وصل إلى تحريمها بتناً.

في الفصل الثاني توصل الكاتب إلى نتيجة أن حضور الإسلام هو العامل الوحيد الذي جاء به هذا التغيير في حياة المسلمين في المدينة بالنسبة لشرب الخمر أيام الرسول ﷺ.

في الفصل الثالث سرد المؤلف ما توصل إليه علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا المعاصرین، بعد دراسات وأبحاث ميدانية كثيرة بأن مدى انتشار الكحول والإدمان في مجتمع أو حضارة ما يتأثر بثلاثة عوامل مهمة، أولاًً درجة الضغوط النفسية والتوترات

* أستاذ بكلية التربية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

التي تحدثها تلك الحضارة في المجتمع، وثانيها الاتجاهات السائدة في تلك الحضارة نحو تناول المسكرات، وثالثها قدرة الحضارة المعنية على إعطاء أفراد المجتمع طرقاً بديلة ونشاطات تستطيع امتصاص تلك التوترات والضغوط السائدة التي كانت حافزاً لاستهلاك الكحول.

ولا شك أن العوامل الثلاثة التي تؤثر في انتشار الكحول وجدت أخصب التربة وأفضل الظروف المناخية لتعزيز جذورها النفسية والاجتماعية في مجتمع حزيرة العرب الجاهل الذي أغرق نفسه في الخمر، كما دل عليه التاريخ والأشعار التي ساقها المؤلف.

في الفصل الرابع عقد المؤلف مقارنة بين الطريقة السلوكية وهي الطريقة المعروفة بالتحصين التدريجي والطريقة القرآنية في معالجة تحرير الخمر. وعلى الرغم من أن الطريقة السلوكية التي اكتشفت أخيراً واستعملت في معالجة الإدمان لا تختلف كثيراً عما وصلت إليه الطريقة القرآنية من نتيجة في معالجة المشكلة نفسها طالما أن الشروط المؤدية إلى الاعتماد على الخمر أدخلت في الاعتبار. وقد أكد المؤلف أيضاً أن ما وصل إليه علم النفس الاجتماعي الحديث من أن نظرية الكف التبادلي الحضاري في حالة الإدمان على الخمر قد استعملها المسلمون أيام الرسول ﷺ خاصة بعد تحرير الخمر بنزول الآيتين ٩١ و٩٠ من سورة المائدة.

استبسط المؤلف من هذه الحادثة أن المدة التي استغرقت ثلاث سنوات منة التدرج في تحرير الخمر ليست العامل الوحيد الذي جعل المسلمين يمتنعون عن شرب الخمر ولكن العامل الحقيقي هو تقبل الدين الجديد، فيصبح الإنسان الجاهلي بين عشية وضحاها شخصاً آخر. ومن ثم فإن الإحساس الجديد بالسلام والأمن داخل الأسرة المسلمة والإحساس بالعزوة والكرامة لدى النساء قد أشاع جوًّا من الرحمة والسكينة مما ساعد على تخفيف حدة مشكلات الذين أقلعوا عن شرب الخمر. كما أن الأطفال الذين تربوا في هذه البيوت كانوا أقل عرضة للإصابة بالقلق العاطفي الذي كانوا يعوضونه بعد البلوغ بالتفاخر القبلي الزائف أيام الجahiliyah.

في الفصل الخامس شرح المؤلف نظريات علم النفس الحديث التي تؤكد أن هناك عوامل متعددة تؤدي إلى تغيير اتجاهات الجماعة وقيمها وبالتالي تؤدي دوراً مهماً في التغيير الاجتماعي الأخلاقي والحضاري لأمة معينة. من هذه العوامل، وجود القائد

الملهم أو البطل، وتحدث عن أهمية القيادة في التأثير والتغيير الاجتماعي، والاهتمام بقضايا الاجتماع، والتماسك الاجتماعي بين الأفراد واستخدامها في حل المشكلات. فقد أدت الدعاء والإشهار دوراً رئيساً في اختيار كل شيء بدأية من رؤساء الجمهورية إلى صابون الشامبو.

ومن ثم فإذا كانت الدراسات الإنسانية والاجتماعية الحديثة تؤكد أن عوامل القيادة والقدرة والتماسك الاجتماعي أو الإعلان لها كل هذا الدور الكبير في تغيير اتجاهات الجماعة وقيمها وفي إحداث الانصياع لتعاليم الجماعة. فباستطاعة المرء من خلال هذه المفاهيم الحديثة أن يتبيّن أسباب تمكّن المسلمين في جولة المدينة المنورة من تحقيق هذه الاستجابة الرائعة لتحرير الخمر.

في الفصل السادس شرح المؤلف بالتفصيل العوامل التي استخدمها الإسلام لحماية المدينة المنورة من الارتداد إلى تناول المسكرات، وهذه العوامل هي:

- 1- الإيمان حجر الزاوية في منع الانتكاس.
- 2- أثر الصلاة والشعائر الإسلامية الأخرى في منع الانتكاس.
- 3- الإيمان والشعائر الإسلامية بوصفها بدائل للاحتماد على الكحول.
- 4- أثر التمسك الاجتماعي والتعاضد في منع الانتكاس.
- 5- منع الانتكاس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- 6- منع الانتكاس بالتحجيف الكامل لمصادر الكحول.
- 7- منع الانتكاس بتطبيق الحدود.

نرى مما سبق أن العوامل النفسية والاجتماعية والروحية التي حققت الإقلاع الطوعي الجماعي والامتثال لأمر الله تعالى هي بعينها إلى حد كبير العوامل التي استخدمها الإسلام لحماية المجتمع من الانتكاس.

وتدل الدراسات المعاصرة في هذا المجال على أن العامل الإيماني له قدرة فائقة ليس فقط في علاج الإدمان ومنع الانتكاس، وتحجيف التوتر والقلق، بل حتى في علاج الأضطرابات العضوية السيكوسوماتية كارتفاع ضغط الدم، والقرحة، وبعض

الأمراض الجلدية، والربو وغيرها من الاضطرابات.

في الفصل السابع عقد المؤلف مقارنة بين العقوبة الإسلامية لشرب الخمر والعلاج النفسي للمدمنين.

فقد سرد المؤلف تجاربه الواسعة الطويلة التي لا تقل عن ربع قرن من الزمان في مجال العلاج النفسي وكذلك الدراسات السابقة التي قام بها غيره من العلماء والمعالجين النفسيين في المجال نفسه فقد قام بمقارنة نوعين من العلاج الذي استخدم في علاج المدمنين هما الطريقة التحليلية الفرويدية وطريقة العلاج السلوكي، وكانت الطريقتان قد استعملتا في معاجلة الأمراض والاضطرابات النفسية ومن ضمنها الإدمان والاعتماد على الكحول.

فقد استنتاج المؤلف بعد استعراض حالات عوожت بالطريقتين التحليلية والسلوكية أن الوسائل التي توصل إليها الطب النفسي مع أبحاث علم النفس والدراسات الإنسانية تؤكد أن أفضل الوسائل لكبح جماح شرب الخمر والامتناع عنها يمكن تلخيصها في استخدام وسائل الضغط الاجتماعي، والقدوة الحسنة التي يجدها المريض في جموعات أصدقاء المدمنين التي تكون عضويتها من مدمنين على الكحول تم شفاءهم بنفس الأساليب الجماعية، واستخدام الجوانب الروحية التي تؤكد اعتراف المدمن بضعفه أمام غول الكحول، و حاجته لقوة إلهية تتولى إنقاذه من الإدمان.

نجد من هذا التلخيص أن الإسلام قد عالج مشكلة الاعتماد على الكحول بوسائل شملت نتائج كل هذه الأوجه، وزادت عليها بالتركيز على اكتلاع عادة إدمان الخمر من جذورها قبل أن تصبح إدماناً مستحكمأً.

وهنا كان واضحاً أن الحكمة مما قام به الرسول ﷺ عندما أمر المسلمين بتوبیخ شارب الخمر وتبکیته عندما حثا التراب على وجه شارب الخمر. إن الحكمة من ذلك كانت تعريف الشارب بحدی خطورة الإثم الذي ارتكبه وتأكيد موقف المجتمع المسلم من فعله.

وفي الفصل الثامن سرد المؤلف خبراته الميدانية الطويلة العريضة في العلاج النفسي ومن ضمنها علاج مدمي الكحول حتى وصل أخيراً إلى القول بأن المؤمن عندما يصل به التأثر بـ وحی الله تعالى سيجعل من نفسه رقياً على نفسه، أو بلغة علم النفس

الحديث يأخذ نفسه بالتدعم الذاتي (Self-Reenforcement) الحواجز الإيجابية والسلبية.

فقد عدد المؤلف فوائد العامل الإيماني في علاج المدمنين، ومنها:

1 - فوائد الاتباع الإسلامي للمدمن الذي يمكن للطبيب النفسي أن يستفيد منها لإخضاع المعتمد على الكحول للعلاج.

2 - ضغوط الأسرة بمفهومها الإسلامي المتدرج وضغط الأصدقاء والإخوان.

3 - الاستفادة من ضبط التوازن الدقيق بين شعور المدمن بالإثم والخجل والخوف من غضب الله وعقابه والأمل في رحمته تعالى وغفرانه والإحساس العميق بالتفاؤل الذي يقوى الغرفة على المضي في طريق الإقلاع.

وأخيراً أكد المؤلف على الجانب الإيماني في علاج الإدمان وقطع دابرها كان في زمن نبوبي طاهر وظروف تاريخية معينة وأنه لا يمكن أن يتكرر في هذا العصر المادي. فقد تكررت معجزة هذا الإقلاع عن الكحول والمخدرات بالفعل في هذا العصر الحديث في أكثر دول العالم تحضراً ومادياً، وبين أفراد تقى فيهم السكر والإدمان بدرجة فاقت كل تصور قديم وحديث. هؤلاء هم الأميركيون الذين اعتنقاً الإسلام.

واختتم المؤلف هذا الكتاب بكلمات مؤثرة في وصف المسلمين الجدد الذين خلدهم الكاتب الأميركي المعروف جيمس بلدوين في كتابه بـ لسان المسلمين السود الذين انقلبوا حياتهم بعد اعتناقهم الإسلام حيث يقول ما معناه: "عودوا إلى دين الحق وحطموا أغلال العبودية التي أحكم وثاقها الشيطان والرجل الأبيض وعودوا إلى جذوركم، أقلعوا عن شرب كحوله، وتناولوا مخدراته، وغفروا نساءكم وأهومهن، واجتنبوا أكل خنازيره القدرة".

تقييم عام

الكتاب فريد في نوعه، قل أن نجد مثيله في أي بلد عربي أو إسلامي، لأنه يركّز على الناحية النفسية والاجتماعية لمرض نفسيّ واجتماعيّ يهدّد كيان الأمم المتحضرة اليوم ألا وهو الإدمان على الكحول. إلا أن هناك بعض الملاحظات التي نود أن نيرّزها في هذا العرض لا تقلل من قيمة الكتاب وجهود مؤلفه في مجال العلاج

النفسي، وهذه الملاحظات هي:

- ١ - فيما يتعلق بعنوان الكتاب وهو حكمة الإسلام في تحريم الخمر: دراسة نفسية اجتماعية كان الأولى حسب رأيي أن تقدم الدراسة النفسية الاجتماعية قبل تحريم الخمر، لأن ذلك يعطي الدراسة طابعاً نفسياً اجتماعياً بدل أن يكون طابعاً فقهياً شرعياً.
- ٢ - من طبيعة الدراسات النفسية الاجتماعية أن العوامل التي تؤثر فيها تكون لا حد لها ومن المستحيل ضبطها. فالمقارنة التي عقدها المؤلف بين الطريقة التحليلية الفرويدية والطريقة السلوكية حيث جاء المؤلف ببيانات تؤيد الطريقة السلوكية. فهل هذا يكفي لاستنباط أن الطريقة الإسلامية تتمشى مع الطريقة السلوكية كما يوحى بذلك استنتاج المؤلف؟ فماذا سيحدث للطريقة الإسلامية إذا جاء باحث آخر ببيانات تؤيد الطريقة التحليلية الفرويدية؟ فلذا نرى أنه لا فائدة من الإشارة إلى أن هذه الطريقة أو تلك تؤكد الطريقة الإسلامية أو ترفضها فيكتفي أن نوضحها كما هي دون الانحياز إلى أي منها.
- ٣ - جبذا لو أن المؤلف شرح كيفية اكتساب الإيمان حسب النظريات النفسية لا سيما نظريات التعلم لأن الإيمان - حسب الآيات المتعددة في القرآن الكريم - له درجات، في أي درجة من الإيمان له قوة فعالة في منع الاتكاس والإدمان؟ اعتقاد أن نظريات التعلم تستطيع أن توضح لنا بعض هذه التساؤلات.
- ٤ - كل هذه الملاحظات لا تقلل من قيمة الكتاب بوصفه كتاباً رائداً في مجال الدراسات النفسية والاجتماعية ليس فقط في علاج الإدمان، بل قد يفتح طرقاً أخرى لتقديم العلوم النفسية والاجتماعية.
- ٥ - أرى أن يترجم هذا الكتاب إلى اللغات الإسلامية المختلفة كالأوردو والسواحلي والملايو وغيرها.